تداولية الخطاب النحوي وآثارها في تحليل الخطاب

د. مبـــــــارك تريكي
جامـــــعة المدية

الملخص

إذا كانت التداولية في جوهرها اتجاها يعنى بدراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي،حيث صار هذا الاتجاه علما جامعا لمجالات معرفية مختلفة الأمر الذي جعل التداولية كنظرية معرفية وفلسفية وكقاعدة لسانية تتوخى مبدأ التكامل بين حقول معرفية لها شرعية الحضور في مقاربة النص-الخطاب- منها علم اللغة والبلاغة والمنطق وفلسفة اللغة وعلم الاجتماع وكل العلوم التي تعنى بالجانب الدلالي للغة،فإذا كانت التداولية هكذا هي في جوهرها وفي مقاربتها للخطابات فإننا نرى تداولية الخطاب النحوي العربي تتمتع بشرعية الحضور الفاعل في مختلف الخطابات المحللة حتى أنه ليمكننا القول إنه يصعب على أية مقاربة نصية –خطابية-الاستغناء عنها ومن ثم كان له شرعية الحضور الفاعل عند محللي الخطابات ومفسريها، فقد وجدناه حاضرا عند محللي الخطابات الشعرية، ومفسري القرآن الكريم وأصحاب الدراسات القرآنية، ومحللي الخطابات الدينية والسياسية، و الخطابات الفلسفية...وكل الخطابات اللسانية التي أنتجتها الحضارة العربية الإسلامية، إذ من يتصدى للبحث في التراث النحوي العربي يجد تداوليته وافرة وأثارها بينة، بما يملك هذا الخطاب من حظوة ومشروعية عند محللي الخطابات العربية بمختلف أنماطه، وبما يوفره من مقدرة وكفاية للمحلل أثناء عملية التحليل، الأمر الذي يؤكد دوره في التحليل للخطابات،لأنه خطاب يتغيى النهج التداولي في معظم خطاباته-قواعده- ودراستنا هذه وقبل أن تتطرق إلى دوره في تحليل الخطابات حاولت الكشف عن الخطاب النحوي العربي ووصفه، وعليه فقد

المنارة للاستشارات
www.mana

وصفته دراستنا بأنه خطاب يقترب من الخطاب العلمي فكانت لغته محددة مضبوطة وكان متلقيه مختلفا عن متلقي الخطابات الأخرى كالخطاب الأدبي مثلا فالمتلقي هنا متلق نخبوي متخصص كما كشفت دراستنا وظائف الخطاب النحوي فوجدتها خمس وظائف هي :

1-وظيفة ضابطة-من مهمة النحو أنه يضبط المعرفة لا ينتجها ووظيفة الضبط غاية كل أنواع الخطابات النحوية إن صح التعبير

2-وظيفة واصفة-من خلالها يعمل الخطاب النحوي على وصف الظاهرة اللغوية ثم صياغتها وتفسيرها

3-وظيفة تفسيرية تخص عددا من القواعد النحوية التي تفسر الظاهرة اللغوية

4-وظيفة تعليلية وهي وظيفة نحوية أيضا تتجسد في عدد من الخطابات النحوية المعللة للظاهرة اللغوية وقد قيل النحو كله معلل

5-وظيفة حجاجية- وهي وظيفة تشترك مع الحقل البلاغي وهي تخص الكثير من الخطابات النحوية الحجاجية كالخلاف النحوي مثلا وكأدلة المذاهب المتحاججة

وكل الوظائف السابقة تشكل جوهر النظرية التداولية في الدراسات المعاصرة باعتبارها تهتم بالتواصل والإقناع والتأثير والمعنى، كما أن كل وظيفة من تلك الوظائف تتمتع بشرعية الحضور في تكوين الخطاب النحوي، ومن ثم شرعية الحضور في عملية تحليل الخطابات ،وعليه فهذه الوظائف عبارة عن خطاب نحوي تداولي تتجسد في مقولات نحوية واصفة ومفسرة ومعللة ومحاججة وكلها تؤدي وظيفة الضبط ،وبناء على هذه الوظائف التي كشفت عنها دراستنا للخطاب النحوي فإن دوره في عملية تحليل الخطاب نراه لا ينكر، وهو الدور الذي نترك صفحات الدراسة للكشف عنه وما يمكن قوله إن دراستنا هنا كانت ذات شقين شق يتعلق بالخطاب النحوي نفسه بإخضاعه للوصف، وشق ثان يتعلق بدوره أو بحضوره وفعاليته في تحليل الخطابات المختلفة.

المنارة للاستشارات
www.mana

تعريف التداولية:

التداولية(pragmatisme) مفهوم مستورد كبقية المفاهيم المستوردة من العالم الغربي الناهض تكنولوجيا وعلميا وحضاريا هذا النهوض الذي رافقته نهضة مصطلحية كبيرة تحمل المضامين الحضارية للغرب المتحضر-والتداولية أحد هذه المصطلحات الحامل لمضمون أقصى درجات التواصل- فالتداولية أو الذرائعية أو التبادلية أو النفعية كما تترجم في العربية حسب ثقافة كل مترجم عربي وميولاته الفكرية ،إن كانت ميولات فرنكوفونية أم أنجلوساكسونية؟ (1) ونحن إذ فضلنا مصطلح التداولية لأنه الأكثر شيوعا والأكثر تعبيرا عن المضمون- كما يبدو لنا- ومن ثم فضلناه و رضينا به ،وهو مصدر صناعي للفعل تداول يتداول تداولا والتداول هو التبادل ومنه العملة المتداولة وجاء في القرآن الكريم (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (2) وقوله تعالى(وتلك الأيام نداولها بين الناس) (3) وقول العرب الأيام دول فيقولون دالت دولته فكل هذا بمعنى المتبادل بين الناس والمستعمل ومن هنا رجح في نظرنا من ترجم التداولية بأنها منهج يعنى بالجانب الاستعمالي التداولي للغة يستعين بمختلف المذاهب اللسانية والاجتماعية والنفسية للوصول إلى تحقيق التواصل قال عبد الهادي بن ظافر الشهري:(من سمات هذا الاتجاه رصد خصائص بنية اللغة الطبيعية وربطها بوظيفتها في التواصل والتوصل إلى أن مقدرة طرفي الخطاب التواصلية تكمن في معرفة القواعد العامة التي تمكنهما من تحقيق أهداف التواصل وتأويل الخطاب ومنها القواعد اللغوية في مستوياتها التركيبية والدلالية والصوتية) (4) فإذا كانت التداولية هي هكذا عندهم منهج يعنى بالجانب الدلالي للغة يستثمر عدة مقاربات لسانية ونفسية واجتماعية لتحقيق غاية هي الاتصال أو التواصل فإن التواصل مهمة أية لغة بشرية في العالم والتواصل موجود بين البشر منذ أن وجدوا على وجه الكرة الأرضية قبل ظهور هذا المصطلح إلى الوجود، ومن ثم فالتداولية ما هي إلا بحث متطور في نظرية الاتصال جاءت به الحضارة الإنسانية المعقدة في القرن العشرين إذ

المنارة للاستشارات

www.mana

ينظر في الخطابات التي تنتج بغرض الاتصال أو ربط التواصل بين المنتج والمتلقي، ولذلك عرفت بأنها(نظرية معرفية فلسفية)5 وعرفت بأنها(قاعدة لسانية) (6) أما الخطاب التداولي بمختلف أغراضه وأهدافه فقد عرف بأنه(ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير بإفهامه قصدا معينا) (7) كما عرف (بأنه كل منطوق به موجه إلى الغير) (8) وعرف أيضا بأنه(الملفوظ المنظور إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل وهو كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما) 9 وعليه فالمصطلح الذي نعنى به هنا مصطلح مركب من لفظ التداولية زائد لفظ الخطاب مع وصف كلمة خطاب بكلمة(نحو) ومن ثم فالمصطلح مركب تركيبا إضافيا وصفيا يصح أن نطلق عليه أي تعريف من التعريفات التي أطلقها الباحثون المشتغلون في تحليل الخطابات إذ تتوافر فيه مواصفات تلك التعريفات كاملة فيمكن من هذا المنظور أن نقول عنه مثلا انه (المنجز اللغوي) (10)ونقول عنه إنه(الملفوظ الموجه إلى الغير بإفهامه قصدا معينا) (11)أو نقول عنه إنه(الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة) (12) أو .. و كيفما كان التعريف الذي نرسو عليه فان المقصود هنا هو إبراز مدى مساهمة هذا النوع من الخطابات التداولية في عملية التواصل إنتاجا للخطابات وتأويلا، فالخطاب النحوي يدخل في عملية الإنتاج ويدخل في عملية القراءة والتأويل والفهم للنصوص المنتجة والمراد تحليلها بغية فهم مضامينها بمعنى أنه خطاب يحظى بعملية التوظيف من المتواصلين- المتخاطبين- المنتج- المرسل- والمتلقي- المخاطب- فهذا يؤسس عليه خطابه الذي يرسله أو رسالته التي يريد تبليغها وذاك يوظفه في عملية التحليل أي القراءة والتأويل أي فك رموز الرسالة أي ما يسميه اللسانيون بالديكوداج وتلك هي آثاره على إنتاج الخطابات وتأويلها التي جاءت في عنوان هذه الدراسة .

تعريف الخطاب النحوي(discours grammatical)

المنارة للاستشارات
www.mana

وإذا كان هذا هكذا فإن المقصود بالخطاب النحوي تلك الخطابات-النصوص- التي صدرت أو أنتجت من قبل النحاة والتي لا تزال تنتج من النحاة-الباحثين- المحدثين في شكل دراسات أو أبحاث تعنى بجوانب معينة من الخطاب النحوي والتي يجدها القارئ في المدونة النحوية ابتداء من أول مؤلف وهو الكتاب لسيبويه إذا استثنينا كتاب الجمل المنسوب للخليل والذي أكدت بعض الدراسات نسبته إليه(13)إلى أحدث كتب الدرس النحوي في عصرنا هذا والتي لم تتوقف عن الصدور والتي مهما كان الخطاب فيها منوعا قربا أو بعدا من الخطاب النحوي فإنه يبقى في نظرنا خطابا نحويا مادام هو يتطرق في معالجته إلى ماله علاقة ولو جزئية بالنحو، أو لكل ما هو ممكن أن يوصف بأنه خطاب نحوي، أو درس نحوي هذا الخطاب الذي وإن أصدرت فيه المؤلفات الضخمة تفسيرا وتحليلا وتعليلا وشرحا وتوضيحا وتبسيطا وتدقيقا فإننا لا نتصوره معزولا عن الخطابات الأخر، فهو في الحقيقة لم يعزل إلا مؤقتا بهدف وصفه ودرسه وضبطه وتعليله وشرحه وتوضيحه وإلا أي عزل لم يكن من أجل الدرس لم يكن مقبولا، وحتى ممكنا فلا يمكن تصوره خارج النصوص التواصلية المختلفة.لذلك فإننا قد نعنى به حين نذكر بعضا من مفاهيمه ونظرياته الضابطة لأنه في الحقيقة هو موجود في كل نص من النصوص اللغوية في أي مجال من المجالات المعرفية التواصلية، فلا يصح للنص أن تكون له صفة النصية، أو الخطابية ما لم يكن لنظرياته خاضعا ولمفاهيمه مطبقا وعلى ضوئها منظما ولذلك عرف الخطاب بأنه(المنجز اللغوي) (14) كما عرف بأنه(مجموعة جمل تتوافر على شرط النظام حتى يمكن درسه وملاحظته) (15)فشرط النظام هو هذا الخطاب النحوي ولكن نحن نرى قبل التحدث عن تواجد هذا الخطاب النحوي ضمن كل الخطابات المنتجة سواء كانت من قبل المرسل أو المتلقي نود أن نتحدث أولا عن الخطاب النحوي نفسه معزولا عن الخطابات الأخرى بهدف تشريحه، وتفسيره، وتوضيحه، وفهمه ووصفه، ولا

المنارة للاستشارات

www.mana

يمكننا فعل ذلك إلا من خلال التعامل مع المدونات النحوية التي اعتنت به تنظيرا وتدقيقا وتفصيلا.

وصف الخطاب النحوي في مدونته:

إذا اقتربنا من المدونة النحوية نحاورها عن الخطاب الذي تحتضنه فإننا واجدون خطابا يقترب من الخطاب العلمي في خصوصياته، فتتميز لغته في عموميتها بأنها لغة محددة مضبوطة، تتعامل مع المصطلحات والمفاهيم، ومعنى هذا أن المساحة بين الدال والمدلول في لغة الخطاب النحوي تكون ضيقة، فهي لغة مفسرة وموضحة وشارحة وواصفة، ومعللة، ومحاججة، وهي الأوصاف أو الخصائص التي تعتبر وظائف الخطاب النحوي في نظرنا وسنعود إليها بالتفصيل لاحقا، لأنها هي لب دراستنا، إذا فنحن هنا أمام خطاب يختلف تماما عن الخطاب الأدبي الإبداعي الذي تموج لغته بالعواطف والتخيلات أو الخطاب الفلسفي الذي تتصف لغته بالإغراق في الماهيات والماورائيات، إنما نحن على علاقة بخطاب تتسم لغته بقدر من الجفاف لأنها موجهة إلى العقل لا إلى العواطف، إذا نحن مع لغة تخاطب العقل والفكر وتحاول صنعهما، ولذلك قيل إن النحو يعلم التفكير إذ يرى أنطوان صياح أن قواعد العربية تنمي العقل الرياضي لدى المتعلم وتدفعه للتفكير في عبقرية اللغة عن طريق فهم قواعد عملها وطرق إنتاجيتها(16).

منتج الخطاب النحوي:

الخطاب النحوي إذا خطاب علمي، غايته تنظيم وضبط الكلام في العربية تحقيقا لنظرية تواصلية كاملة بين المتواصلين، وهو خطاب يتسم بطابع الديمومة والحضور في كل عملية تواصلية أو بتعبير آخر في كل رسالة لغوية إذ أية رسالة لغوية – نص- يجب أن يكون الخطاب النحوي حاضرا فيها لأنه من مضامينها باعتباره خطابا منضما له أو لها،بل منتجا له أو لها، ومن ثم لا يمكن لأي خطاب لغوي مهما كان منتجه ومهما كانت أغراضه العلمية أو الفلسفية أو السياسية أن يستغني

المنارة للاستشارات
www.mana

عن الخطاب النحوي، فهو حاضر في كل الخطابات، في الخطاب الفلسفي، والخطاب السياسي، والخطاب الديني، والخطاب الإعلامي، وحتى ولو لاحظ القارئ خروقا للخطاب النحوي أي لحن نحوي كرفع المنصوب مثلا أو جره أو ..فإن هذه الخروق أو اللحون لا تنقص من قيمة حضوره وفعالياته مهما كانت درجاتها من الخطورة ،لأنها لا تهدم النظام النحوي ولا تزيله من أذهان المتواصلين فهو موجود ضمنيا في أذهانهم ،على انه إذا كان الخطاب أي خطاب خطابه النحوي لاحنا منحرفا كانت دلالته منحرفة أو على الأقل تكون ملبسة، تمنح فرصة للقارئ المشاكس أن يعطي لها تفسيرا مشاكسا قد يضع منتج الخطاب أمام مخاطر جمة، إن القراءة المضادة لمنتجي الخطاب لها إمكانية الحضور بوفرة إذا لحن منتج الخطاب بكثرة، ومن هنا تبرز تداولية الخطاب النحوي ودورها الفاعل ،لذلك اعتنى العلماء في لغتنا العربية بضرورة حضور الخطاب النحوي أثناء إنتاج الخطاب تنظيما للعملية الإنتاجية شكلا ودلالة، لأن الغاية في آخر الأمر هي السلامة الدلالية، والسلامة الدلالية هذه تفترض السلامة الشكلية وهذا هو الذي أطلق عليه شومسكي السلامة النحوية أو نحوية الجملة أو مقبوليتها(17) (gramaticalite)على أننا هنا نتجاوز الجملة إلى الخطاب فنحوية الجملة هي استقامتها الشكلية والدلالية ونحوية النص- الخطاب- أيضا هي استقامة متواليات الجملية شكلا ودلالة غير أننا ننبه إلى أن الشروط التي يجب أن تتوفر في النص- الخطاب- لنحكم عليه بقوة الخطابية أو النصية ليست هي نفسها التي يجب أن تكون السلامة النحوية للجملة المقبولة، ولكنها بعض منها وزيادة، ومن هنا حرص منتجوه على ضرورة اعتباره خطابا ضامنا منضما لسلامة التواصل في مختلف الخطابات، وفي مختلف السياقات، أو على الأصح حرصوا على رصد القواعد التي تسمح بإنتاج عدد من الخطابات بعدد المقامات أو السياقات، بحيث صار يعرف المتواصلون أن هذا النوع من التراكيب يصلح لهذا النوع من المقامات، وهذا النوع من الخطابات يليق بهذا النوع من المقامات والسياقات، ومن هنا كان

المنارة للاستشارات

www.mana

لكل خطاب قواعده وضوابطه ويدخل في هذا العامل اللغوي والعامل غير اللغوي ليسهما في إنتاج الخطاب القوي (18) ومن ثم يؤكد محلل الخطاب على الوجوه المتبادلة والعلاقات القائمة بين المتحدث والمستمع(19) وهكذا يتدخل الخطاب النحوي في إنتاج أي خطاب، ومن هنا فإن منتجي الخطاب النحوي كانوا في نظرنا تداولين جدا، لأن غايتهم فيما يبدو لنا وللكثير من الدارسين كانت غاية دلالية تواصلية نفعية، وهذه هي التداولية فيما نعرف إذا فمنتجو الخطاب النحوي في نظرنا هم علماء تداوليون نفعيون على معرفة واسعة بالنظرية التواصلية، وهي المعرفة التي مكنتهم من إنتاج خطاب نحوي تداولي.مكن المنتج والمتلقي من التواصل

متلقي الخطاب النحوي:

إذا كان منتجو الخطاب النحوي كما بيناهم كانوا تداوليين غايتهم الحرص على سلامة التواصل بين منتجي الخطابات ومتلقيها، ومنها الخطاب النحوي بحكم أنه خطاب يتسم بالديمومة والحضور، لأنه الضابط والمنظم لكل الخطابات المنتجة في حياتنا التواصلية كما كنا قد بينا سابقا، فإن ما يجب ذكره هنا هو أن الخطاب النحوي خطاب علمي يتسم بالدقة والضبط، وإذا كان هذا هكذا فإننا نتصور أن المتلقي في الخطاب النحوي يكون مختلفا عن المتلقي في الخطاب الأدبي مثلا أو أي نوع من أنواع الخطابات الأخرى، فالمتلقي في الخطاب النحوي متلق نخبوي، وأقصد بالنخبوية هنا التخصص الدقيق، ومن ثم فالخطاب النحوي لا يتوجه إلى جميع الناس، وإنما يتوجه به إلى المشتغلين المتخصصين في حقل الدرس اللغوي النحوي اللساني من أساتذة وطلبة باحثين في المجال اللغوي النظري والتطبيقي غير أن قولنا هذا لا يعفي الآخرين ممن لم يتخصص في الدرس اللغوي من ضرورة الإلمام بقدر من المعرفة للخطاب النحوي، وهو القدر الذي يمكن وصفه بالضرورة التي يجب أن يحيط بها ويستحكمها كل من يشتغل على النصوص، كالمتخصصين

المنارة للاستشارات
www.mana

في الدرس الأدبي وهم أكثر الناس حاجة إلى المعرفة النحوية بعد اللغويين والدرس النقدي أيضا، لأن هذه القضايا لها ارتباط وثيق بالمعرفة النحوية، وهي تتداخل فيما بينها، وتتكامل فالناقد الأدبي يكون محتاجا إلى هذه الإلمامة التي سميناها ضرورة، والناقد الثقافي مثله، والأسلوبي، وكذلك المتخصص في علوم الدين فكل هؤلاء يكونون-في نظرنا- اشد الناس احتياجا إلى هذه الضرورة، بل هذا الأخير نراه في حاجة إلى التعمق في الخطاب النحوي حتى يتمكن من قراءة الخطاب القرآني وتأويله والاشتغال على مضامينه، ولا أكون مبالغا إذا قلت إن هذه الضرورة ضرورية لكل المتواصلين في أي حقل من حقول المعرفة حتى ولو كانت حقول علمية بحتة، فلا نتصور أن المعلومة ستصل سليمة إلى متلق في الطب أو الهندسة إذا لم يكن الخطاب اللغوي الناقل لتلك المضامين العلمية الطبية منظما ومنسقا، وهي مهمة مسندة إلى الخطاب النحوي كما بينا ومن ثم نرى أن هذه الضرورة لا يعفى منها أحد من المتواصلين سواء كان منتجا أم متلقيا، أما ما زاد على الضرورة وهو التخصص العميق الدقيق في الخطاب النحوي فهو الذي يكون في نظرنا محصورا عند المتخصصين في اللغة العربية وفي مختلف علومها اللسانية، وهم النخبة هنا وإذا علمنا أن نميز بين صنفين من الخطاب النحوي خطاب نحوي أساسي تعليمي ضروري وهو الذي يمكن تسميته بالنحو الأساسي أو الوظيفي فهذا يجب أن يحيط به كل المتواصلين ولو بدرجات متفاوتة، وخطاب نحوي آخر هو خطاب نخبوي تخصصي تعمقي وهو خطاب موجه إلى المتخصصين فهم وحدهم المعنيون به الذين عليهم معرفته والإلمام به لأنه موجه إليهم وحدهم دون غيرهم

قراءة الخطاب النحوي وتأويله:

لما كان الخطاب النحوي كما بينا خطابا علميا يتوجه إلى الباحثين في اللغويات تضيق لغته بين الدال والمدلول كانت قراءته أيضا محددة مضبوطة تتميز بالصرامة والضبط المنهجي الدقيق، فلا تقبل تعدد القراءات إلا قليلا وإن قبلت فهي لا

المنارة للاستشارات

www.mana

تخص كل الخطابات النحوية بل هي قراءة قد تخص بعض الخطابات النحوية التي تخص بعض القواعد التي قعدت للغة العرب في مختلف لهجاتها، وهي محصورة فيما يمكن تسميته الخطاب النحوي الحجاجي الخلافي، أو فيما يمكن تسميته أيضا الأوجه الإعرابية التي تحتملها اللفظة في السياق الذي ترد فيه، وهي في الحقيقة أوجه آتية من المرونة التي تتمتع بها العربية في نظامها النحوي والصرفي وهي المرونة التي جعلت العربية تسع مختلف الأغراض التي يحتاج إليها المتواصلون، وهي على أية حال تبرز تداولية الخطاب النحوي إذ سعى النحاة في ضوء هذه الأوجه أو الأغراض إلى تقنين خطاب نحوي يسعها ويشملها ويتيح للمتواصلين تحت تلك الظروف أو المقامات أو السياقات التعبير عن مشاعرهم وأغراضهم.

وظيفة الخطاب النحوي:

إذا كانت وظيفة الخطاب الأدبي هي إثارة الحاسة الفنية والطاقة الجمالية الخلاقة في الإنسان بإثارة تلك المشاعر فيه، فإن وظيفة الخطاب النحوي هي تقرير الحقائق العلمية، وتعليل الظواهر اللغوية، ووصفها، وتفسيرها ثم صياغة النظرية وإذا كان هذا هكذا فإنه خطاب ينمي العقل و الفكر إذ هو خطاب يعنى بتطوير الجانب الفكري في الإنسان فهو خطاب لا يثير مشاعر وأحاسيس كما هو حال الخطاب الأدبي إنما هو خطاب يصف الظاهرة اللغوية أو يفسرها ويشرحها أو يعللها، ومن ثم فهو خطاب ضابط يضبط الظاهرة اللغوية، أو على الأصح يضبط الكلام البشري الذي هو عبارة عن تأدية فردية كما يقول دو سوسير(20) فالخطاب النحوي هنا يمكن وصفه بأنه يمثل اللغة والأمثلة التي يمثل بها لهذا الخطاب تمثل التأدية الفردية لجانب من اللغة وكأني أريد أن أقول إن الخطاب النحوي مؤسسة جمعية وما يتمثل به لبعض قواعده هو كلام فردي أي تأدية فردية، وذلك لأن النحو نظام فالخطاب النحوي يمثل اللسان لأنه نظامه، ولذلك وصفنا الخطاب النحوي بأنه خطاب واصف وشارح ومفسر ومعلل ومحاجج وضابط وهذه

المنارة للاستشارات
www.mana

الأوصاف هي عبارة عن خصائص أو وظائف للخطاب النحوي وهي موضوع حديثنا الآن

خصائص أو وظائف الخطاب النحوي:

كنت قد أومأت سابقا إلى أن الخطاب النحوي عند وصفه يتميز بأنه ذو وظائف ضابطة أو واصفة أو شارحة ومفسرة أو معللة ومحاججة فهذه وظائف وصفات في الآن ذاته، وأزعم أن القواعد النحوية التي تشكل في جوهرها الخطاب النحوي الذي هو في حقيقته مجموعة من قواعد لا تخلو عن أن تكون موصوفة بواحدة من الصفات المذكورة ومن ثم فإن الخطاب النحوي –قواعد النحو- اتسم بهذه الأوصاف: الضبط والوصف والتفسير والتعليل والحجاج، ونحن وإن كنا لا نستطيع تحديد نسبة القواعد الضابطة أو الواصفة أو المعللة أو المحاججة فلأننا لم نحاول ذلك، ولأن ذلك أمر لا نعنى به هنا، وقد لا تكون طاقة لنا به الآن، لأنه يستوجب دراسة مسحية معمقة للمدونة النحوية كلها وهو أمر لا نستطيع القيام به في هذا المقام فإننا نقر أن كل صفة من الصفات السابقة تشكل نسبة لا باس بها في الخطاب لماذا، لأن كل الخطاب النحوي يتشكل من هذا فالذي لا نعرفه نحن فقط هو نسبة كل صفة ليس إلا وذكرنا أن غايتنا هنا ليست تحديد نسبة كل صفة بل غايتنا هي البرهنة على وجود هذه الوظائف بنماذج من القواعد النحوية – الخطاب النحوي- وهو ما نفعله الآن من خلال التحدث عن تلك الوظائف بالتفصيل.

1-وظيفة الضبط:الخطاب النحوي في أساسه خطاب ضابط حتى أنه يوصف بأنه خطاب يضبط المعرفة ولا ينتجها أي يضبط اللغة التي تنتج الفكر، أو التي تنقل الفكر، ومن ثم قيل عن النحو بأنه ينتج الفكر ويضبطه على خلاف بينهم(21)وإذا ابتعدنا عن هذا الخلاف فإننا نجد الخطاب النحوي يملك خاصية الضبط والتنظيم لأي خطاب منتج في أي غرض من الأغراض، فإنني أزعم أن هذه الخاصية أو الوظيفة وهي خاصية الضبط هي أهم الوظائف فيه إذ نجدها في كل

المنارة للاستشارات

www.mana

خطاب –قاعدة– من قواعده فكل خطاب نحوي –قاعدة نحوية– تتسم بوظيفة الضبط فوظيفة الضبط هذه تتسم بسمة الحضور الدائم، والفاعل في أي خطاب من الخطابات –خطاب نحوي وغير نحوي –قاعدة– ومن ثم تأتي بعدها الوظائف الأخرى وعلى هذا الأساس فقد تكون القاعدة النحوية حجاجية ضابطة أو تعليلية ضابطة أو تفسيرية ضابطة أو وصفية ضابطة فهذه الوظيفة وظيفة الوظائف، ولذلك قلنا حصر بعضهم الخطاب النحوي في الضبط فقال عنه انه يضبط المعرفة ولا ينتجها–وإن كنا نحن نرى أنه ينتج المعرفة ويضبطها معا فهو خطاب منتج ومنظم معا في نظرنا– ومن ثم فإن الخطاب النحوي خطاب الخطابات إذ لا يخلو أي خطاب من خطاب نحوي، فالخطاب متوالية من الجمل بينها رابط وأي خطاب خلا من الخطاب النحوي خلا من صفة الخطابية بل لا يمكن إنتاج خطاب من دون الخطاب النحوي ومن حاول رصف عدد من المتواليات معتقدا أنها تشكل خطابا كان عمله هراء وقد تمثل الكثير من الباحثين العرب برصف مجموعة كلمات لا تتوافر فيما بينها على شرط التعليق وتبين لهم هرائيتها(22) وهكذا تبدو لنا وظيفة الضبط هذه لا يخلو منها الخطاب النحوي فكل قاعدة –من قواعده–هي خطاب نحوي يتسم بصفة الضبط ومادام الأمر هكذا فإنني أعتقد أنني لست في حاجة إلى التمثيل، لأن كل قاعدة نحوية خطاب ضابط يصح أن يكون مثالا لما نقول، ومن ثم لا داعي للتمثيل، فكل قواعد النحو سواء كانت قواعد الوجوب أو الجواز أوالاستحسان هي قواعد ضابطة هدفها في النهاية ضبط الكلام – الشكل اللغوي– لتامين سلامة الدلالة ومن ثم التواصل بين المتواصلين بأقل جهد وأسرع وقت وهذا هدف أي لغة طبيعية وهذا هو ما نسميه الاتصال المؤمن الذي تؤمنه اللغة بفضل أنظمتها ومنها النظام النحوي الذي نعنى به هنا بوصفه خطابا

المنارة للاستشارات
www.mana

2-وظيفة الوصف: الوصف وظيفة اللغة أية لغة تمارس هذه الوظيفة ومن ثم فقد نص غير واحد من الباحثين على وجود هذه الوظيفة ونحن هنا لا نعنى بالتفصيل بين المنهجين الوصفي والتأويلي التعليلي، وإنما نكتفي بالتركيز على بعض القواعد –الخطاب النحوي- التي تصف الظاهرة اللغوية وتصنفها فهذا النوع من القواعد –الخطاب- موجود في نحونا العربي وهو حقيقة لا يمكن نكرانها،و قد كانت لنا الفرصة سانحة في كتابات سابقة لتبيين المنهج الوصفي لدى نحاتنا فعلى الرغم من اتهام نحونا العربي بأنه نحو معياري يجنح إلى التأويل والتقدير وهي حقيقة أيضا لا يمكن نكرانها، ولا نراها عيبا يذم به نحونا غير أنه لا يمكن إطلاقها دون قيد ففي خطابنا النحوي قواعد معيارية تأويلية وفيه أيضا قواعد وصفية وهي التي نعنى بها هنا فإذا كان أساس المنهج الوصفي هو تقرير الحقائق اللغوية ورصد الظواهر اللغوية كما هي دون محاولة تفسيرها بتصورات غير لغوية فإن هذه الممارسة موجودة عند نحاتنا ومعتنى بها وبذلت في سبيلها الجهود فهناك عدد هائل من القواعد النحوية –الخطاب النحوي- يمثل بها لهذا المنهج ومما يتهم به خطابنا النحوي التقليدي –مجاراة للوصفيين- أيضا هو أنه لم يقعد للعربية المتحدث بها وإنما قعد لعربية مخصوصة،بل متصورة في أذهان النحاة لغة معيارية وهي تهمة نعتز بها- ونكذب قائلها في الآن ذاته- نعتز بها لأنها تقر بأن النحو العربي كان معياريا أي لغته نموذجية فنحن نعتز بالنمذجة، و نكذب أن يكون خطابنا النحوي بعيدا عن التداولية، لأنه لو كان كذلك فمن أين استطاع منتجو الخطاب أن ينتجوا هذا الكم الوفير الغزير من مختلف أنواع الخطابات في حضارتنا التي لقبت بحضارة النص –الخطاب- فهذا واقع يكذب هذه الدعوى ويبطلها وتكذبها كذلك الممارسة المكثفة للوصفية يقول عبده الراجحي(والاتصال المباشر بالواقع اللغوي أصل من أصول النحو الوصفي كما ذكرنا وقد كان أيضا أصلا من أصول النحو العربي نتيجة لطبيعة الحياة العربية ولطبيعة الحركة العلمية التي نشأت في مناخ عام أساسه النقل والرواية وقد أدى هذا الاتصال إلى أن يكون في النحو اتجاه وصفي

المنارة للاستشارات

www.mana

في تناول كثير من ظواهر اللغة) (23)ومثل الراجحي لهذا بعمل أبي الأسود الدؤلي في ضبط القرآن وقال في موضع آخر(إن الاتجاه الوصفي في النحو العربي يظهر في كثير جدا مما قرره النحاة الأوائل من أحكام فالحق أن ماقرروه لم يكن كله تأويلا أو تقديرا أو تعليلا وإنما كان فيه ماهو وصف تقريري محض) (24) ثم قال(والمتتبع للكتاب يرى أن سيبويه قد أقام قواعده في اغلبها على الاستعمال اللغوي ( )25) وهو الأمر الذي يؤكد تداولية الخطاب النحوي العربي ويفند الاتهامات التي اتهمته بأنه يقعد للغة مفترضة وقد ذكر الراجحي أدلة على ما يقول منها أن سيبويه كان يقرر الأحكام مباشرة من كلام العرب حيث نجده يقول(فأجره كما أجروه وضع كل شيء موضعه) أو (فأجره كما أجرته العرب واستحسنته) 26) ومنها أيضا عدم إيغاله في تفسير الظواهر اللغوية ومنها انه كان يتحرى الاستعمال اللغوي العربي(27) وعليه فالخطاب النحوي يتميز بكونه خطابا تتعايش فيه وظائف وصفية وتفسيرية وتعليلية وحجاجية وهي كلها تمارس وظيفة الضبط، ومن ثم سميناه خطابا ضابطا ثم أن الوصف النحوي يعد مستوى من مستويات عدة تمارس فيها وظيفة الوصف منها المستوى الصرفي، والمستوى الصوتي ،والمستوى المعجمي، والمستوى الدلالي .

3-وظيفة التفسير:إن وظيفة التفسير في الخطاب النحوي تشكل نسبة عالية من القواعد النحوية المشكلة للخطاب النحوي برمته في نظرنا، حتى اعتبر التفسير سبة أو تهمة اتهم بها خطابنا النحوي العربي، ولست أدري إذا لم تكن القواعد النحوية مفسرة لتفهم ومفسرة للظاهرة اللغوية وشارحة لها وموضحة لأنظمتها هل تكون لها جدوى؟ فما جدوى الخطاب النحوي إذا لم يكن قادرا على تفسير الظواهر الذي تتأسس عليها اللغة؟ أعتقد أن وظيفة التفسير غاية أي منهج فحتى المنهج الوصفي الذي يزعم أتباعه أنه يتمسك بوصف الظاهرة اللغوية كما هي، غايته في الأخير- و بعد تصنيف الظواهر المتشابهة -هي تفسير تلك الظواهر

المنارة للاستشارات
www.mana

وشرحها وتوضيحها وهم وإن حصروا التفسير في أن يكون نابعا من اللغة ذاتها لا من ذات النحوي أو من خارج اللغة فإنهم يقرون بوجود التفسير وممارسته، لأنه سبيل إلى الفهم، أو التبليغ ومن ثم التفهيم، والحقيقة أن النحاة العرب لم يلجئوا إلى التفسير المعلل إلا بعد أن لا حظوا عدم كفاية المنهج الوصفي، إذ في اللغة عدد غير قليل من الظواهر التي تستعصي على الوصف الشكلي المجرد منها أساليب الإغراء والتحذير والنداء... لهذا لجأ إليه النحاة لمعرفة تلك الظواهر ووضع قواعد تضبطها وتنتظمها وبفضل التفسير تمكنوا من ضبط هذه الظواهر المستعصية، فأوجدوا لها مكانا في الخطاب النحوي(28)

4-وظيفة تعليلية:اتصاف الخطاب النحوي-القواعد النحوية- بالتعليل شيء مقرر عند جميع الدارسين حتى أنه عد عند بعضهم تهمة اتهم بها هذا الخطاب، فقيل النحو كله معلل، وقد اعتبر الإيغال في التعليل للظواهر اللغوية ومن ثم الأحكام النحوية –الخطاب النحوي-مما عقد الخطاب النحوي، وسلك به مسلك الجدل، ومن ثم البعد عن الطبيعة اللغوية، فحكم على الخطاب النحوي بأنه خطاب فلسفة وجدل ومنطق (29) حتى قيل عن العلل التي يتعلل بها النحاة في خطابهم بأنها أقرب إلى علل أهل الجدل والمتكلمين (30) (وحتى قيل عن النحوي انه إذا سئل عن حكم نحوي -خطاب نحوي- ولم يعرف علته فإنه يعلله بقوله هكذا نطقته العرب على غرار الفقيه الذي عندما يعجز عن تعليل حكم فقهي فإنه يعلله بقوله أمر تعبدي (31) فهذا القول الذي صار مثلا سائرا في دراستنا النحوية أو الأصولية نراه يؤكد تعليلية الخطاب النحوي، فالخطاب النحوي خطاب معلل في كل قواعده فهل تعليلية هذا الخطاب مما ينفعه وينفع متلقيه أم هي مما يضره ويضر المتلقي ؟وهل هذه العلل التي وسم بها هذا الخطاب في مستوى واحد؟وهل كان يمكن ألا يكون هذا الخطاب معللا؟وهل يمكن أن نزيح هذه السمة من هذا الخطاب الذي يتمتع بصفة الحضور الدائم في كل الخطابات بصفته خطابا ضابطا لها؟وبعبارة أخرى هل يمكن إنتاج خطاب نحوي خال من الوسم بالتعليل؟إن

المنارة للاستشارات

www.mana

الذي يشتغل على الخطاب النحوي واصفا دارسا يجده فعلا كما وصف بأنه خطاب معلل فكل قاعدة من قواعده إلا وأوجد لها النحاة علة تعللها، فهناك نحاة شغلوا أنفسهم وأجهدوا عقولهم بالبحث عن تعليل القواعد، فهم وجدوا زمنيا بعد أن قعدت القواعد واكتمل بناؤها فلم يجدوا ما يشتغلون به غير تعليل تلك القواعد، فعللوا وأوغلوا فهذه حقيقة لا مراء فيها فهل متلقي الخطاب النحوي اليوم وغدا مطالب بمعرفة هذه التعليلات بما فيها الموغلة المتمحلة المتعسفة؟نعتقد غير ذلك لغير المختصين ونعتقد ذلك للمختصين إن العلل التي نبلغ بها الخطاب النحوي للمتلقي قد يطالب بمعرفتها هذا المتلقي وقد لا يطالب إذ يكفيه القاعدة التي تمكنه من اكتساب المهارة اللغوية المراد تبليغها، وهي العلل المسماة عندهم عللا تعليمية أما العلل الأخرى الثواني والثوالث والمسماة عندهم بالعلل القياسية والجدلية فليس واجبا على هذا النوع من المتلقي معرفتها(32)غير أننا من وجهة نظر أخرى لا ندعو إلى إلغاء هذه الخطابات النحوية المعللة تعليلا قياسيا، أو جدليا كما دعا البعض، لأننا نرى أنها لا تخلو من فوائد على المتلقي والملقي خاصة في عملية فهم وتحليل الخطابات، فإذا كانت العلل الأول تعلم القواعد فإن العلل الثواني والثوالث قد تساعد المتلقي على فهم أغراض العرب وحكمها(33) في مختلف خطاباتها التواصلية، وهو أمر له دور خطير في العملية التحليلية التداولية ومن ثم إذا تخلينا عنها نكون قد حرمنا أنفسنا وحرمنا القارئ العربي، أو المتواصل العربي من بعض وسائل التحليل للخطاب، أو وسائل الفهم والتأويل للخطاب المتلقى، من هنا تبقى حاجة محلل الخطاب ماسة-في نظرنا- إلى هذه الخاصية التعليلية للخطاب النحوي ونرى كلما امتلك محلل الخطاب هذه الخاصية أو الوظيفة، كلما كان متحكما في أدوات معرفية تمكنه من قراءة الخطاب- أي خطاب- وتأويله بشكل أحسن من لو لم يمتلك هذه الأدوات، إذا ليكن واضحا أن الخطاب النحوي في خاصيته –وظيفته-التعليلية يعتبر أداة معرفية تساعد على

المنارة للاستشارات
www.mana

القراءة والتأويل، ولعل هذا ما يقصده الأصوليون من قولهم عن العلل الجدلية إنها تعلمنا حكمة العرب ففعلا ما يطلعنا على كيفية التفكير عند العرب وما هي حكمهم يعتبر أداة معرفية -ولاشك- تساعد المحلل على القراءة والتأويل لمختلف الخطابات التي يتلقاها فتعدد القراءات والتأويلات بتعدد الأدوات المعرفية وما يمكن قوله في ختام هذه الخاصية التعليلية هي أن الخطاب عند منتجيه الأوائل لم يكن كله معللا وإن علل فإن علله كانت ذات طابع لغوي بحت لكن المتأخرين من النحاة هم الذين عللوا الخطاب النحوي(34) فتتبعوا كل قاعدة من قواعده وأوجدوا لها تعليلا،من هنا عم التعليل الخطاب النحوي كله حتى قيل النحو كله معلل.

5-الوظيفة الحجاجية:يقول عبد الهادي بن ظافر الشهري:الحجاج هو الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها وتتجسد عبرها استيراتيجية الإقناع) (35) ونقل عن بوبر أنه(من أبرز وظائف اللغة الأربع إلى جانب كل من الوظيفة الوصفية والوظيفة الاشارية والوظيفة التعبيرية إذ يستعمل المرسل اللغة بغرض الحجاج ليهيئ الحجج والتفسيرات ويقومها) (36) والذي يتأمل في الأساليب الحجاجية يجد أنها تأتي في سياق الإقناع والتأثير بصفة عامة، ولذلك اعتبر بعضهم آلية الحجاج وظيفة أساسية للغة قال عبد الهادي بن ظافر الشهري:(نظرية الحجاج في اللغة تنطلق من فكرة مفادها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير وان الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج وان المعنى ذو وظيفة حجاجية) (37) وهي حقيقة يمكن التأكد منها في مختلف الخطابات المنتجة خاصة في العلوم الإنسانية التي تكون فيها الخطابات –النصوص- مساحة لصراع التراكيب إذ كل حجة قد يليق بها هذا النوع من التراكيب ولا يليق بها ذاك النوع من التراكيب لأنها محكومة بهذا المقام لا بذاك ولما كان الحجاج – الخطاب النحوي-آلية تجسد الخطاب الاقناعي فان له عددا من الملامح إذ يتميز بخمسة ملامح رئيسة هي –التوجه إلى مستمع-يعبرعنه بلغة طبيعية-مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية-لا يفتقر تقدمه وتناميه إلى

المنارة للاستشارات

www.mana

ضرورة منطقية بمعنى الكلمة-ليست نتائجه –خلاصته-ملزمة(38) 458 الشهري وهي الملامح التي نجدها تتوفر في الخطاب النحوي الحجاحي والتي نجدها في المدونة النحوية التي اهتمت بتدوين هذا الخطاب ونقصد بها مسائل الخلاف في كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري هذا الكتاب الذي اعتنى فيه صاحبه برصد الخطاب النحوي الحجاجي –الخلاف بين البصريين والكوفيين- والذي حصره في 121 مسالة خلافية فالذي يتفحص هذا الكتاب المدونة يجده موسوما بالملامح السابقة كلها فهو موجه إلى مستمع بصري أو كوفي ففي كل الأحوال أحدهما منتج والآخر متلق معبر عنه بلغة طبيعية أيضا مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية لا قطعية تناميه وتقدمه غير مفتقر إلى ضرورة منطقية بكل معنى الكلمة، ونتائجه ليست ملزمة للمتلقي فخطاب البصري غير ملزم للكوفي وخطاب الكوفي غير ملزم للمتلقي البصري، بل حتى القارئ اليوم غير ملزم بخطاب معين فهو حر في اتباع أي الخطابين أراد، فله أن يتبع الرأي البصري في هذه المسالة، وله أن يتبع الرأي الكوفي في تلك، وما يؤكد هذا هو أن نحونا العربي-الخطاب النحوي- الذي نتعامل به اليوم في تواصلاتنا أي الذي ينظم كلامنا، أو نصوصنا التي نتواصل بها يتشكل من الخطابين البصري والكوفي معا.وإذا اشترط محللو الخطاب في الوظيفة الحجاجية أن يكون المتلقي -المرسل إليه- واعيا بالرسالة الحجاجية إذ يقول عبد الهادي بن ظافر الشهري(المرسل ليس غفلا فخصائصه مرهونة معروفة لدى المرسل إليه مسبقا إذ لن يحاجج إلا من سبق أن فقه موقفه وعرف خصائصه فهو مرسل إليه مخصوص وتكمن خصوصيته في أن الخطاب موجه إليه بالذات) (39) فهذا الشرط هو ما نجده موفورا في الخطاب النحوي الحجاجي –الخلاف النحوي-إذ يعرف كل من المرسل-المنتج البصري- خصائص المرسل إليه- المتلقي –الكوفي- معرفة كاملة وعلى ضوء تلك المعرفة بالخصوصية أنتج خطابه وضمنه حججا في نظره دامغة مقنعة ومؤثرة

المنارة للاستشارات
www.mana

والعكس أيضا صحيح إذ يعرف المرسل –المنتج الكوفي خصوصية المرسل إليه – المتلقي- البصري ومن ثم فقد أنتج خطابه على تلك الخصوصية وضمنه من ثم حججه التي تدحض حجج الخصم والتي تحاول إقناعه وإذا قيل استيراتيجية الإقناع بالحجاج هي الاستيراتيجية الأصلح في خضم الصراع والمناقشات فان هذا ما اقتنع به منتجو الخطاب النحوي الحجاجي، ولذلك أنتجوه ومن ثم كان هذا الخطاب النحوي الحجاجي بديلا عمليا لكثير من وسائل الإرغام فهو الأداة السلمية التي تضمن التغيير في معتقدات المرسل إليه –المتلقي- وإذا انتقلنا من الخطاب النحوي الحجاجي إلى الخطاب الحجاجي الديني أو السياسي مثلا فإننا نجد الحجاج خير آلية يتسلح بها المبدعون السياسيون من أجل تبرير موقفهم(40) ولم يكن الحجاج من ثم ليتغيب عن أي خطاب فمارسه النحاة ومارسه الفلاسف، والمناطقة والفقهاء والأصوليون قال عبد الهادي بن ظافر الشهري:(ولقد كان الأمر كذلك عند القدماء أيضا إذ تبلور الحجاج في شتى العلوم والمعارف بل كان سببا في تنامي المعرفة بينهم، ولم ينحصر الحجاج في هذه العلوم، بل كان حاضرا في خطب الخلفاء والسلاطين، والعلماء الذين كانوا يعمدون إليه بغرض إقناع الجمهور بأفضلية خيار من الخيارات المتاحة، فالحجاج إذا آت من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة) (41)هذا ويتحدث العلماء عن ضوابط تضبط الحجاج يذكر الشهري هذه الضوابط وهي(42) أن يكون الحجاج ضمن إطار الثوابت دينية عرفية-أن تكون الألفاظ محددة المرجع الذي يحيل عليه الخطاب محدد-ألا يقع المرسل في التناقض بقوله أو بفعله-موافقة الحجاج ما يقبله العقل-توفر المعارف المشتركة بين طرفي الحجاج مما يسوغ قبول المرسل إليه حجاج المرسل أو إمكانية مناقشتها أو تفنيدها -أن يأخذ المرسل في اعتباره تكوين صورة عن المرسل إليه اقرب ما تكون إلى الواقع قدر الإمكان إذ ينتج عن تجاهله تصور قاصر –مناسبة الخطاب الحجاج لسياق الكلام لأنه هو الكفيل بتسويغ الحجج الواردة في الخطاب من عدمها فقد يكون الحجاج صحيحا ولكن المقام يأباه-

المنارة للاستشارات

www.mana

ضرورة خلو الحجاج من الإبهام والمغالطة والابتعاد عنهما-امتلاك المرسل – المنتج- لثقافة واسعة.

ومن يتأمل الخطاب النحوي الحجاجي ممثلا في مدونته الخاصة بمسائل الخلاف يجده خطابا ينضبط بهذه الضوابط كلها مما يجعله خطابا نحويا حجاجيا تداوليا بامتياز في نظرنا ولا داعي للتمثيل، لأن المقام لا يسمح.هذا وإذا صنف الخطاب الحجاجي عندهم إلى صنفين هما خطاب حجاجي توجيهي وخطاب حجاجي تقويمي فان الخطاب النحوي الحجاجي نجده يشملهما معا في نظرنا إذ منتجه يعمل من خلاله على توجيه المتلقي الوجهة التي يراها صوابا، ويقوم في الآن ذاته خطاب مرسله الذي كان قد تلقاه أو تصور أنه يتلقاه من الخصم، إذ يعمل الخصم هنا على إنتاج خطاب ويرسله، ومن ثم فهو خطاب توجيهي تقويمي، ولو سمح المقام لمثلنا بعشرات الأمثلة الخطابية على ما نقول هذا وإذا كان الباحثون يحددون للخطاب الحجاجي تقنيات يجب أن يستعملها فان تقنيات الخطاب النحوي الحجاجي هي نفسها التقنيات التي تستعمل في أي خطاب، خطاب حجاجي توجيهي، أو خطاب حجاجي تقويمي، وهذه التقنيات هي الأدوات اللغوية الصرفة مثل ألفاظ التعليل كالمفعول لأجله وكي وألفاظ السبب ومنها الأفعال اللغوية كالاستفهام الذي عد من أنجع الأفعال اللغوية حجاجا، ومنها أيضا الحجاج بالتبادل الذي عد العدول من أنجعها، ومنها الوصف الذي يشمل عددا من الأدوات اللغوية منها الصفة، واسم الفاعل، واسم المفعول، ومنها أيضا تعدد التعريفات للمعرف الواحد، وغيرها مما يذكره الباحثون(43) إلى هنا نحسب أننا تمكنا بقدر المستطاع، وفي إطار ما يسمح به المقام من وصف الخطاب النحوي وصفا لعله يمكننا من المرور إلى إبراز تداوليته وآثارها في تحليل الخطابات وهو ما نفعله الآن

تداولية الخطاب النحوي وآثراها في تحليل الخطاب:

المنارة للاستشارات
www.mana

يقول ادوارد سعيد(من دون مفهوم الخطاب لا يستطيع المرء أن يفهم الحقل المنظم تنظيما هائلا الذي استطاعت أوروبا بواسطته أن تدير بل ونتج الشرق سياسيا واجتماعيتا وعسكريا وأيديولوجيا وعلميا وخياليا أثناء فترة ما بعد التنوير) (44) بدأنا مبحثنا هذا بهذا القول حتى نضع أنفسنا ومعنا القارئ أمام ضرورة معرفة مدى أهمية ما نحن مقبلون على الحديث عنه الآن ،غير أن ذلك لا يعني أننا سنقدم للقارئ كلاما فيصلا في هذا الشأن، فإن ذلك أمر لا ندعيه، و لا نقوى عليه، بل لا تقوى عليه جماعة من الباحثين المتخصصين، فما بالنا بشخص مثلي لا يملك من أدوات البحث إلا القليل وهو إن قارب مسألة بحثية فإنما يلامسها مجرد ملامسة، وإنما ذكرنا لهذا القول يأتي في سياق الإشارة إلى ضرورة الاعتناء به، والتنبه لمخاطره، لذلك كانت النصوص أو الخطابات تنبني على مخاطر، ومن ثم وجدنا الخطباء يعدونها إعدادا محكما وسيزداد هذا الأمر أهمية أكثر إذا ذكرنا القارئ بأن بعضهم قد عرف الخطاب بأنه(شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه) (45)فإذا عرفنا هذا فقد استعظمنا ما نحن مقبلون عليه فتهيأنا له وإذا عرفنا هذا واستعظمناه فنأمل أن تكون مقاربتنا على قدر من الأهمية بما تطرحه من أفكار، ومن ثم نجد أنفسنا مجبرين على معاودة طرح السؤال الذي كنا قد طرحناه في بداية البحث، ما تحليل الخطاب؟وما دور تداولية الخطاب النحوي في تحليله؟أما تعريف الخطاب فقد عرف بأنه(كل مقاربة تتخذ لها موضوعا للوصف وحدة لغوية أكثر من الجملة تحليلا للخطاب) (46) فتحليل الخطاب إذا هو عملية قراءة وتأويل له فما هي الأدوات القرائية والتأويلية للخطاب؟ نعتقد أن هناك عدة أدوات للقراءة والتأويل تنص عليها الدراسات التحليلية والتنظيرية الخطابية، وكذلك اللسانيات التداولية ولعل هذه الأدوات القرائية التأويلية تنقسم إلى قسمين هما أدوات الاتساق وأدوات السياق فأدوات الاتساق هي أدوات داخلية نصية، أما أدوات السياق فهي أدوات خارجية أي

المنارة للاستشارات

www.mana

خارج النص، أما السياق فهو عندهم يتمثل في المتكلم- والكاتب والمنتج- والمستمع- القارئ- والمتلقي الزمان والمكان لأنه يؤدي دورا فعالا في تأويل الخطاب بل كثيرا ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين(47) لهذا يجب مراعاة السياق وأخذه بعين الاعتبار أثناء التحليل فلا يمكن تحليل خطاب ما دون معرفة سياقه(48) ومن ثم كان للسياق التأثير الكبير في نظرنا على تأليف الخطاب النحوي، لماذا؟ لأن الخطاب النحوي كان خطابا يراعي المقامات والسياقات التي يحدث فيها التلفظ ،ومن ثم فقد اعتنى نحاتنا بالتقعيد لهذه المقامات والسياقات، ومن هنا فهناك علاقة وطيدة بين السياق والخطاب النحوي ممثلا في نوعية التراكيب المقولة-المنظرة- للخطاب فهذا الأمر له أهميته في المنهج التداولي وأثر تداولية الخطاب النحوي في عملية تحليل الخطاب، فلا نتصور أن يكون هناك خطاب لغوي لا يعنى فيه منتجه بمرحلة التركيب(فالخطاب نسيج من اللغة في المقام الأول رغم أن الاستعمال هو الذي يجعله فاعلا) (49) وهو أمر يبين أيضا وكما جاء على لسان عبد الهادي بن ظافر الشهري ضرورة ربط التداولية كذلك بعلم التراكيب، باعتبار أن هذه المعطيات هي ظواهر تركيبية وشكلية يولدها التلفظ(50) تلك الضرورة التي تأكدت في الحقيقة عند إنتاج الخطاب بل وتحليله إذ ينص كما بينا سابقا الدارسون على أن اتساقية الخطاب تنتج من مجموعة من الأدوات النصية الداخلية والتي يحصرونها فيما يلي:(51)

1-الإحالة وهي عندهم نوعان إحالة مقامية وإحالة نصية، والنصية نوعان قبلية وبعدية ،وهي لها دور فعال في اتساق النص- الخطاب-وهي عندهم تنحصر في الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة وهي كلها لها دور فعال في اتساق النص

2-الاستبدال وهو عندهم عملية تتم داخل النص، وهو تعويض عنصر بعنصر آخر يقول عنه خطابي شأنه شأن الإحالة علاقة اتساق وهو علاقة تتم في المستوى

المنارة للاستشارات
www.mana

النحوي المعجمي بين كلمات أو عبارات بينما الإحالة علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي وهو وسيلة أساسية تعتمد في اتساق النص وبكونه عملية داخل النص فهو نصي، كما أن معظم حالات الاستبدال النصي هذه قبلية، أي علاقة بين عنصر متأخر وعنصر متقدم، ومن ثم عد الاستبدال مصدرا أساسيا من مصادر اتساق النصوص

3-الحذف يحدد الحذف أيضا عندهم بأنه علاقة داخل النص ويرون أن معظمه يكون موجودا في النص السابق، ومعنى هذا أنه علاقة قبلية، وهو بصفته علاقة اتساق لا يختلف عن الاستبدال إلا بكون الأول استبدالا بالصفر، بمعنى أن علاقة الاستبدال تترك أثرا وأثرها وجود أحد العناصر المستبدلة، بينما علاقة الحذف لا تترك أثرا، إذ لا يحل محل المحذوف أي شيء

4-الوصل أما الوصل الذي اعتبر مصدرا من مصادر اتساق النصوص، فهو عبارة عن تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظم ،وذلك لأن النص عبارة عن متتاليات متعاقبة خطيا ولكي تدرك كوحدة متماسكة مترابطة تحتاج إلى عناصر ربط تصل بين هذه المتواليات

5-الاتساق المعجمي ويتم هذا الاتساق من خلال الربط والتضام إذ من المعروف في اللغة أن هناك تكرارا بإعادة عنصر معجمي معين، آو مرادفه، كما هناك بعض الكلمات تتضام إلى كلمات أخر، ونوع من الكلمات يرفض هذا التضام، فهذا التضام يحقق نوعا من الاتساق النصي، هذا الاتساق الذي يعتبر شرطا ضروريا وكافيا للتعرف على ما هو نص وعلى ماليس نصا (52)

فإذا كانت هذه الأدوات ضرورية لكي يكون النص- الخطاب- متسقا أي منضما منضبطا وهي في الحقيقة ما أطلقنا عليه نحن سابقا بالوظيفة الضابطة، والتي رأينا أنها عامة لكل الخطاب النحوي فهي أيضا ضرورية عند تحليله، لأن التحليل هو تفكيك يفترض قراءة وتأويل، ومعلوم أن للقراءة والتأويل أدوات، ومن بين هذه الأدوات هذه القواعد الضابطة فهي مادامت أدوات للضبط- الخطاب- فهي أيضا

المنارة للاستشارات

www.mana

أدوات للقراءة والتأويل بهدف الفهم والتفهيم إلى جانب الأدوات الأخرى الخارج نصية، أي السياقية فتحليل الخطاب كما يصفه أحدهم هو(مجموعة من الإجراءات والآليات التي تدرس ما ينتجه المتكلم من خطابات متنوعة في ظروف مختلفة وأول من وضع المصطلح اللساني الأمريكي هاريس ويدل الخطاب عنده على مجموعة من الإجراءات الشكلية التي تمكن من تحليل الكلام المكتوب منه والمنطوق) (53) كما أن هناك مناهج متعددة لتحليل الخطاب بل هناك مدارس فهناك المدرسة الفرنسية والمدرسة الانجلوساكسونية، ولكل منها نظرياتها وتفرعاتها، وكيفما كان الحال فإن محللي الخطاب يتبعون المنهجية التقليدية للسانيات الوصفية محاولين وصف الأشكال اللغوية التي تدور في معطياته دون إغفال المحيط الذي وردت فيه فمحلل الخطاب يحاول أن يكشف الاطرادات في معطياته وان يصفها(54) فنلاحظ تركيز القول السابق على وصف الأشكال اللغوية وما هو مطرد في النص- الخطاب- ومن ثم كان تحليل الخطاب ذا مستويات عدة فهناك التحليل الصوتي للخطاب، وهناك التحليل الصرفي، وهناك التحليل النحوي، وهناك التحليل النفسي، وهناك التحليل اللساني..والذي نعنى به هنا هو التحليل النحوي للخطاب- الخطاب النحوي- بمعناه العام هذا الخطاب نراه ينهض بعبء كبير في عملية تحليل الخطاب والدليل على ذلك تداوليته الوافرة عند محللي الخطابات، فعندما نتأمل النماذج الخطابية المحللة عندهم نجد الخطاب النحوي فيها حاضرا بمقولاته الواصفة والمفسرة والمعللة والمحاججة زيادة على الوظيفة الضابطة، كما نجد استخداما واسعا عندهم لكثير من مصطلحا ته،وتوظيفا للكثير من مقولاته، ومن ثم شرعية حضور هذا الخطاب عند محللي الخطابات غير مطعون فيها.وإذا صح عندنا هذا فإن تداولية الخطاب النحوي تصبح غير مطعون فيها أيضا، فهي تمتلك شرعية الحضور الفاعل، والدائم في عملية الإنتاج-الخطاب-وعملية التحليل، لأن الخطاب المحلل هو خطاب منتج

المنارة للاستشارات
www.mana

أيضا يخضع للخطاب النحوي تنظيما وضبطا، ويخضع إليه من ثم تحليلا إذا ما صار موضوعا للتحليل، والحقيقة التي لا مراء فيها هي أن تداولية الخطاب النحوي يمكن أن تنتزع من الخطاب النحوي نفسه دون أن نرى آثارها على غيره من الخطابات الأخرى، ذلك أنه خطاب من أجل التداولية النفعية الاستعمالية الاتصالية أنتج، فالذي يخضع المدونة النحوية للبحث والتأمل يجد منتجيها الأوائل كثيرا ما كانوا يخرجون إلى البوادي لمشافهة الأعراب وتسجيل استعمالاتهم، وهذا أمر غير مطعون فيه البتة(55) ولا تصمد أمامه الاتهامات التي أطلقها بعضهم عن غير وعي على الخطاب النحوي العربي بأنه خطاب ينأى عن الاستعمال، وأنه يقعد للغة مفترضة، أو لغة نخبوية فلقد كذبت الأبحاث المختلفة مثل هذه التهم ،وفندتها فإذا كانت التداولية في أساسها هي الجانب الدلالي للغة في الاستعمال فإننا نجد جل القواعد النحوية-الخطاب النحوي- تتأسس على المعنى المتداول عند العرب قال الباحث كريم حسين ناصح الخالدي(ويعد المعنى سببا آخر من الأسباب التي دعت النحاة إلى التأويل) (56) ويقول في موضع آخر من الكتاب نفسه عنهم(إنهم كانوا يراعون أمورا يقتضيها التقدير) (57) ومنه الحمل على المعنى(58) ومنه ما قاله في موضع آخر وكذا كان اختلافهم في التعليل يرجع إلى اختلافهم في تعليل المعنى المراد(59) ومما يظهر بجلاء تداولية الخطاب النحوي هو تلك الظواهر التي سموها أساليب نحوية كأسلوب الأمر والنهي والاستفهام، والنداء فتحديدهم لهذه الأساليب كان مؤسسا على ما تفيده من معان تتداول عند العرب واختلافهم حولها أيضا كان بسبب تداولية المعنى ،حيث اختلفوا في تعريفهم للأمر والنهي يقول كريم حسين ناصح الخالدي- وهذا التفريق بين تلك المعاني قائم على مراعاة المقام- (60) ولم يقفوا عند هذا الاختلاف في تحديد الأمر والطلب والدعاء بل تتبعوا خروج ألفاظ الأمر إلى معان كثيرة غير معنى طلب حصول الفعل،وتعرف هذه المعاني من سياق الكلام والقرائن المصاحبة، وحال المخاطب، وما يقتضيه المقام، وقد أشار النحاة إليها في دراستهم(61)

المنارة للاستشارات

www.mana

والحقيقة التي لا يماري فيها أحد هي أن جل الأبواب النحوية-الخطاب النحوي - تتأسس على التداولية بحيث نستطيع أن نرجع كل قاعدة من قواعدهم النحوية لو رحنا نتتبعها إلى معنى من المعاني المقصودة، فالحمل بنوعيه، والاتساع، والتقدير، والنيابة ودلالة الأدوات، واختلاف التقدير في التبعية، وكأغراض الخبر والإنشاء، وغير هذا من المفاهيم النحوية، وكذا كل أنواع القواعد النحوية الأخرى، ولعل ما يظهر تداولية الخطاب النحوي العربي أيضا تلك الأبواب النحوية التي نجدها في المدونة النحوية كباب المنصوبات المتشابهة، وفيها يقول ابن هشام ما يحتمل المصدرية والمفعولية(62)ومثل له بقوله تعالى(ولا تظلمون فتيلا) (63)ففتيلا يحتمل المفعولية والمصدرية ومنه أيضا: مايحتمل المصدرية والظرفية والحالية وقد مثل له بقوله سرت طويلا، ومنه أيضا: ما يحتمل المصدرية والحالية وقد مثل بقوله جاء زيد ركضا، ومنه ما يحتمل المصدرية والحالية والمفعول لأجله، ومثل له بقوله تعالى (يريهم البرق خوفا وطمعا) (64) ومنه ما يحتمل المفعول به والمفعول معه، وقد مثل له بأمثلة عديدة نحجم عن ذكرها، وغير هذا كثير مما لو رحنا نتتبعه، ولعل ما يدل على تداولية الخطاب النحوي أيضا، والذي هو من الأمور التي تساعد على تحليل الخطاب وفهمه بل وفهم الخطاب النحوي نفسه، هو أن يراعي المعرب ما يقتضيه ظاهر الصناعة والمعنى وهو كثيرا ما تزل فيه الأقدام حسب ابن هشام الذي نص عليه بالقول(فأول واجب على المعرب أن يفهم ما يعربه) (65)ومثل له بأمثلة وفيرة، ومما يستدل به أيضا على تداولية الخطاب النحوي ودوره في تحليل الخطاب ما نجده في إعراب الفعل المضارع مثلا في قوله تعالى(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا) (66) فانه يحتمل الجزم بالعطف والنصب على الإضمار على ما يقرر ابن هشام ومعلوم انه لكل إعراب دلالته فللنصب معنى غير معنى الجزم فهذا وأشباهه وهو كثير وفير مما له تأثير واضح- ولا شك- على تحليل الخطاب القرآني، ومما يدل أيضا دلالة واضحة على تداولية الخطاب

المنارة للاستشارات
www.mana

النحوي هو أن سيبويه نجده يساوي بين تقديم المفعول وتأخيره في الاستعمال(67) ومنه أيضا ما سماه بعضهم تأويل الموقع الذي مثل له سيبويه بقوله- قد عرفت زيدا أبو من هو وقد عرفت زيدا أبا من هو ومثله قد عرفت زيد أبو من هو- يقول عبد الله محمد الكناعنة فإنه قد نصب على المفعول به وأما إذا رفع فإن جملته تكون تامة وهو مبتدأ فيها فالصراع إذن استعمالي(68) وهو قول يدل بوضوح على تداولية الخطاب النحوي،وعدم بعده عن الاستعمال، فالذي تحكم هنا في التقنين هو التداول الاجتماعي، ثم ما يدل على تداولية الخطاب النحوي عند سيبويه أنه لم يكن يكتفي بالشواهد المصنوعة بل نجده يحرص على إيراد الشواهد العربية الحية، ولذلك كثيرا ما وجدنا سيبويه يحمل بعض الأحكام النحوية على القبح أو الضرورة ويكون ذلك عندما ينحاز الاستعمال إلى مرتبة متدنية في التداول اللغوي لكن مع تقبيحه فهو يقنن له(69) قال عبد الله محمد الكناعنة فالقبح أو الاستحسان الذين يصدرهما سيبويه ليس مبنيين على حكم ذوقي وإنما هو حكم نابع من رصد تداول النمط اللغوي عند العرب(70) فمظاهر هذا الصراع تثبت أن أحكام سيبويه كانت تستند إلى التداول ودلالة السياق الاستعمالي(71) ومما يشهد لتداولية سيبويه أنه إذا صادفته منطوقات قليلة الاستعمال ولم يستطع توجيهها، أي لم تصمد تداوليا فانه يصفها بالقليل وأحيانا بالخبيث (72) ومما يشهد له أيضا أنه كثيرا ما كان يصرح بضرورة الالتزام بالمسموع عن العرب(73) فهذا القول لا مطعن فيه، ومن ثم في تداولية الخطاب النحوي السيبويهي- في نظرنا- فمما لاشك فيه أن العلاقة بين المعنى والنحو واضحة لا تخفى على من يتأملها إذ يظهر أن عناصر المعنى كانت من جملة الأمور التي أخذت بالحسبان منذ أن بدأ النظر النحوي يقول محمود حسن جاسم(74) ثم يردف قوله السابق بقوله ومن يتتبع سيبويه في الكتاب يرى قيمة هذه الأمور في تنظيره بوضوح إذ نلمس البعد الاجتماعي وقضايا السياق اللغوي في جل الشواهد التي يسوقها(75) وقال في موضع آخر من الكتاب نفسه مبينا تداولية

المنارة للاستشارات

www.mana

الخطاب النحوي عند سيبويه- ويراعي سيبويه الجانب الاجتماعي أو ما يسمى بالأفكار السياقية المتبادلة بين المتكلم والمتلقي المنتسبين إلى بيئة اجتماعية واحدة..وعندما يبين الأوجه النحوية المحتملة في عبارة ما وهو ينظر يبني ذلك على البعد الاجتماعي لتلك العبارة فيذكر الأوجه التي تحتملها في ضوء المقام التي تستخدم به) (76) كما قال عنه إنه كان –يراعي الأعراف الاجتماعية التي تؤدي إلى الاختصار والاقتصاد في الكلام(77) وغير هذا كثير مما لا يسعه المقام لو رحنا نتتبعه ،ولعل من الأدلة التي يستدل بها على تداولية الخطاب النحوي وآثارها على تحليل الخطابات تلك المقولات النحوية التي تكتظ بها الدراسات التحليلية للخطابات المختلفة خاصة الخطابات الدينية كالخطاب التفسيري، والخطاب الفقهي، والخطاب العقدي، والخطاب الفلسفي، زيادة على الخطابات اللسانية والأدبية والنقدية، فكل دراسة تحليلية لهذه الأنواع من الخطابات لا نجدها تخلو من هذه المقولات النحوية، وهو الأمر الذي يدل بوضوح على تداولية الخطاب النحوي العربي ونفعيته، ومن ثم حاجة هذا النوع من الدراسات إليه، هذا زيادة على دوره في عملية القراءة والتأويل، ومن ثم لا نتصور تحليلا لخطاب ما مهما كان مضمونه يستغنى عن الخطاب النحوي في أبسط مبادئه وأعقد مسائله، ومن ثم كانت دراستنا هذه التي أردناها أن تثبت هذه التداولية، وهذا الدور للخطاب النحوي بخصائصه، ومميزاته، وبجهازه المصطلحي الغزير فأثبتت ما قلناه وما خلصنا إليه.

وخلاصة ما يقال في ختام هذه الدراسة هي أن تداولية الخطاب النحوي العربي وجدته الدراسة –على بساطتها-وافرة وإذا قيل إن الكفاءة التداولية تعد مكونا فاعلا ضمن تكوين الإنسان السوي تماما كما هي كفاءته اللغوية(78)فإن هذا القول نراه ينطبق تماما على تداولية الخطاب النحوي العربي، وهي الكفاءة التي تميز بها نحاتنا، فكانوا أسوياء في كفاءتهم النحوية التداولية ظهرت آثارها واضحة

المنارة للاستشارات
www.mana

على مختلف الخطابات-النصوص- التي كانت مصدر ا من أهم مصادر المعرفة الإنسانية، ومحورا رئيسا في كل الدراسات التي تتخذ من النصوص-الخطابات- مجالا للتطبيق، ومنها تحليل الخطاب، فهو علم يشتغل على النصوص-الخطاب- ومن ثم فهو مفتقر إلى أدوات، وتقنيات ليتمكن من التحليل، ومن هذه الأدوات والآليات الخطاب النحوي بمواصفاته، وخصائصه، وبمقولاته الوافرة،وبنظرياته وإذا قيل أيضا بأن الكفاءة التداولية ليست نسقا بسيطا بل هي أنساق متعددة متآلفة –وهو قول صحيح-إذ هي تتألف عندهم من خمس ملكات هي:الملكة اللغوية، والملكة المنطقية، والملكة المعرفية، والملكة الإدراكية، والملكة الاجتماعية(79) فإن هذه الملكات قد تمتع بها منتجو الخطاب النحوي العربي وبكفاءة عالية، وهي تظهر من خلال الخطاب النحوي نفسه، وهي التي مكنتهم من إبراز قدراتهم التداولية العالية، وإذا صيغ أيضا على ضوء هذه الملكات قوالب خمسة، أو ستة هي القالب اللغوي، والقالب المعرفي، والقالب الاجتماعي، والقالب المنطقي، والقالب الإدراكي، ثم القالب الشعري، وهي القوالب التي صنفت إلى صنفين مثل بعضها القدرة اللغوية وبعضها الآخر السياق، أو كما سماها بعضهم قوالب آلات وقوالب مخازن(80) فإن هذه التسمية يتضح منها أن الخطاب النحوي يعتبر قالبا آليا، وبالتالي فهو آلية من آليات التحليل لمختلف الخطابات، وكيفما كان الحال فإن هذه القوالب، أو الملكات فهي جميعها تعمل على إنتاج الخطاب، خطاب لا يتسم بصحة تراكيبه الشكلية فحسب، بل وبكونه خطابا مناسبا للسياق(81) وإذا لوحظ أيضا أن حجم هذه القوالب يتفاوت في وضع الخطاب فإن الخطاب النحوي لا يمكن تجاهله، أو تغييبه، لأنه يتسم بسمة الحضور الدائم ، لأنه يمثل القانون الذي تنتج على ضوئه اللغة، فهو الذي يصف ما يستطيع أن يفعله المرسل-ينتجه-إلى المرسل إليه في لغة معينة، وإذا قيل إن الكفاءة اللغوية لا تنهض وحدها بعملية التواصل، قلنا نحن لم ندع ذلك ومتى كان الخطاب النحوي العربي معزولا عن القوانين التداولية؟أو قوانين التواصل؟ألم

المنارة للاستشارات

www.mana

يشر الخطاب النحوي في الكثير من قواعده الخطابية بالقول الصريح الفصيح بأن هذا يستحسن قوله وهذا يقبح؟ فمن يعد إلى المدونة النحوية السيبويهية يجد هذا كثيرا وفيرا، إلى هنا وعلى ضوء ما سبق يمكننا القول إن تداولية الخطاب النحوي غير مطعون فيها فهي تداولية مبرهن عليها، وعلى كفاءتها، وكفاءة منتجيها من خلال عملية إنتاج الخطاب النحوي ذاته، إذ أكدنا أنه أنتج في ظل تداولية كاملة وافرة غايتها التقنين للاستعمال اللغوي الاجتماعي -أي لما هو متداول اجتماعيا- في أقصى درجاته والتواصل في شتى مجالاته، ويؤكد هذا الأمر كفاءة الخطاب النحوي العربي وتواجده الدائم الفاعل في عملية الإنتاج -الخطابات-والتحليل لمختلف الخطابات الناقلة للمعرفة التي أنتجتها حضارتنا عبر عصورها،ومما سبق كله يظهر لنا على الأقل وكما تشير الباحثة(راضية حفيف بوبكر) ملامح للتداولية الحديثة إذ أثبتت البحوث ومنها -بحثنا هذا المتواضع- أن المنظرين العرب قد ركزوا في دراساتهم وأبحاثهم على المرسل والمتلقي والرسالة وعملية التأثير والتأثر، والقصد ونوايا المتكلم والفائدة من الكلام والإفهام(82)وهذه هي جوهر النظرية التداولية حتى أن أحد الباحثين العرب المحدثين وهو محمد العمري كما تنقل عنه الباحثة(راضية حفيف) قد ذهب في كتابه(البلاغة العربية) إلى أن التداولية الحديثة هي بعد جاحظي في أصولها(83)وإذا كان المنظرون العرب قد جردوا ثلاث وظائف للعملية التواصلية وهي -الوظيفة الإخبارية-الوظيفة التأثيرية-الوظيفة الحجاجية فإن الملاحظ هو أن كل هذه الوظائف تشكل جوهر النظرية التداولية في الدراسات المعاصرة باعتبارها مقاربة تهتم بالتواصل والإقناع والتأثير والمعنى(84)ومن ثم حق لنا تأكيد المجاهرة بالقول إن التداولية لها حضور قوي وقديم جدا في التراث العربي لا يقل عنه في التراث الغربي، و مع ذلك يمكننا في الأخير أن نشير بالقول الوجيز إلى أن التداولية هذه التي تقدم نفسها على أنها المنهج النفعي الذي يتغيا الاتصال في أقصى درجاته، والتي تستعمل أية وسيلة

المنارة للاستشارات
www.mana

لغوية أو غير لغوية للاتصال مهما كان نوع هذه الوسيلة، هي في الحقيقة منهج محفوف بالمخاطر، ولعل من بين أهم المخاطر أنها تضرب الخطاب التداولي الفصيح فباسم التداولية قد يجنح المتواصلون إلى تفضيل المتداول من الخطاب العامي اللهجي السوقي الهابط وهو ما حدث ويحدث، وهي تفعل ذلك قد لا تتقيد بالنظم اللغوية الرسمية، وهذا خطره جسيم على اللغات في نظرنا.

الهوامش:

1-ميجان الرويلي وسعد البازغي دليل الناقد الأدبي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ط 3 سن 2002م ص 167

2-سورة الحشر آية7

3-سورة آل عمران آية 140

4-عبد الهادي بن ظافر الشهري إستراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية دار الكتب الجديدة المتحدة بيروت ط 1 سنة 2004م ص 10

5-راضية حفيف بوبكر التداولية وتحليل الخطاب، الموقف الأدبي مجلة شهرية يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق عدد 399

6-عبد الهادي بن ظافر الشهري المرجع السابق ص23

7- المرجع نفسه ص 37

8-المرجع نفسه ص 39

9-بشير إبرير من لسانيات الجملة إلى علم النص الموقف الأدبي مجلة شهرية تصر عن اتحاد الكتاب العرب دمشق عدد 401 سنة 2004م

10-عبد الهادي بن ظافر الشهري المرجع السابق ص23

11- المرجع نفسه ص 37

12-المرجع نفسه ص 23

13- حقق الباحث فخر الدين قباوة كتاب الجمل المنسوب إلى الخليل وجزم في مقدمة تحقيقه بنسبته إليه

14-عبد الهادي بن ظافر الشهري المرجع السابق ص 23

المنارة للاستشارات

www.mana

15- احمد يوسف تحليل الخطاب من اللسانيات إلى السيميائيات الموقع www.nizwa.com volime 12p38
16- أنطوان صياح دراسات في اللغة العربية الفصحى وطرائق تعليمها دار الفكر اللبناني بيروت ط 1 سنة 1995م ص 109
17- ينظر كتاب في رحاب اللغة العربية للدكتور عبد الجليل مرتاض ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر سنة2004م ص 152
18-مازن الوعر تقنيات الخطاب المقنع والخطاب العادي مجلة الموقف الأدبي عدد 375 سنة 2002م
19-المرجع نفسه
20-ينظر في ذلك كتاب الدكتورعبده الراجحي النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج دار النهضة العربية بيروت طبعة سنة 1986م ص 27
21- د مبارك تريكي دعوات تيسير النحو بين الغلو والاعتدال محاضرة ضمن أشغال الملتقى الوطني الثاني لقضايا النحو العربي المنعقد بجامعة تيهرت ماي 2007م
22-ينظر في ذلك القاعدة النحوية لمحمود حسن الجاسم ص104 وكتاب اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان ص 181 إلى 183
23-د عبده الراجحي النحو العربي والدرس الحديث ص55
24-المرجع نقسه ص نفسها
25-المرجع نفسه ص نفسها
26-المرجع نفسه ص 56
27-المرجع نفسه ص نفسها
28-د مبارك تريكي النداء بين الوصف والتفسير مجلة علوم إنسانية عدد 32 العنوان الالكتروني للمجلةwww.ulum.nl
29-تحدث غير واحد من الباحثين عن تمنطق النحو العربي في مرحلته المتأخرة انظر مثلا عبده الراجحي المرجع السابق الفصل الثالث من الكتاب المعنون بالنحو العربي وأرسطو ص 61 وغيره من المؤلفات الوفيرة التي عالجت الموضوع
30-ينظر القول في كتاب الاقتراح للسيوطي المكتبة التوفيقية القاهرة سنة 2003م ص96 و103

المنارة للاستشارات
www.mana

31-المرجع نفسه ص97

32 المرجع نفسه ص 111 و112

33-المرجع نفسه ص102

34-يذهب إلى هذا عدد غير قليل من الباحثين الذين يؤكدون البداية المنهجية السليمة للنحو العربي على يد العلماء الأوائل كالخليل وسيبويه ثم تمنطق النحو العربي وكثرت فيه العلل في القرون المتأخرة

35-عبد الهادي بن ظافر الشهري المرجع السابق ص 456

36-المرجع نفسه 457

37-المرجع نفسه ص نفسها

38-المرجع نفسه ص 438

39-المرجع نفسه ص 458

40-المرجع نفسه ص 454

41-المرجع نفسه ص 459

42-المرجع نفسه 466 467

43-المرجع نفسه ص 490

44-ينظر القول في كتاب دليل الناقد الأدبي المذكور سابقا ص 156 157

45- المرجع نفسه ص 155 والتعريف لميشال فوكو

46-محمد خطابي لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ط 2ستة 2006م ص47

47-المرجع نفسه ص 52 53

48-المرجع نفسه ص 52

49-المرجع نقسه ص 23

50- المرجع نفسه ص 23

51- المرجع نفسه 18 19 21

52- المرجع نفسه ص 12

53- عبد الرحمن بودرع موقع ومنتدى اللسانيات العربية

54-محمد خطابي المرجع السابق ص 49

المنارة للاستشارات

www.mana

55-هذا الأمر تؤكده كل الدراسات التي اهتمت بالتأريخ للدرس اللغوي العربي عموما والدرس النحوي خصوصا

56-كريم حسين ناصح الخالدي نظرية المعنى في الدراسات النحوية دار صفاء للنشر والتوزيع عمان الأردن ط 1 سنة 2006م ص117

57-المرجع نفسه ص 157

58-المرجع نفسه ص 295

59-المرجع نفسه ص 163

60-المرجع نفسه ص 391

61-المرجع نفسه ص 394

62- ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب تحقيق محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية ط جديدة منقحة سنة 2005م ج2ص643

63-سورة الإسراء آية71 وينظر التخريج في المغني ص 644

64-سورة الرعد آية 12 والتخريج في المغني ص645

65-ابن هشام المرجع السابق ص 605

66-سورة غافر آية 82 وسورة محمد اية10 والتخريج في المغني ص648 و649

67-عبد الله محمد طالب الكناعنة الصراع بين التراكيب النحوية دراسة في كتاب سيبويه دار الكتاب الثقافي الأردن ط سنة 2007م ص59

68-المرجع نفسه ص 60

69- المرجع نفسه ص 67

70-المرجع نفسه ص 68

71-المرجع نفسه ص 68

72-المرجع نفسه ص 70

73-المرجع نفسه ص 73

74-محمود حسن الجاسم القاعدة النحوية تحليل ونقد دار الفكر بدمشق ط 1 سنة 2007م ص 93

75-المرجع نفسه ص 94

76-المرجع نقسه ص 113

المنارة للاستشارات
www.mana

77-المرجع نفسه ص 114

78- عبد الهادي بن ظافر الشهري المرجع السابق ص57

79-المرجع نفسه ص57

80-المرجع نفسه ص58

81-المرجع نفسه ص58

82- راضية حفيف بوبكر التداولية وتحليل الخطاب الموقف الأدبي عدد399

83-المرجع نفسه

84-المرجع نفسه

المنارة للاستشارات

www.mana

المنارة للاستشارات
www.mana